القشيري[1] والقاضي أبي بكر بن العربيّ وغيرهم. والمراد بقوله تعالى : ﴿وتخشى النّاس﴾ إنّما هو إرجاف المنافقين بأن نَهَى عن تزويج نساء الأبناء وتزوّج بزوجة ابنه[2]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ هذه الآية : ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه. وتخشى النّاس﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة[3] وعن أنسٍ قال : جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النّبيّ ﷺ يقول : اتّق الله وأمسك عليك زوجك. قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه. قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النّبيّ ﷺ وتقول : زوّجكنّ أهاليكنّ وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات[4] كما كانت تفخر على نساء النّبيّ ﷺ وكانت تقول : إنّ الله أنكحني في السّماء[5].

فلمّا قضى زيدٌ منها وطرا : قال العلماء : ولم يذكر الله عزّ وجلّ في القرآن باسم العَلَم من أصحاب نبيّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلاّ زيداً في هذا الموضع من القرآن الكريم[6] وطرا : حاجةً وأربا[7].

زوّجناكها : روى الإمام جعفر بن محمّد عن آبائه عن النّبيّ ﷺ أنّه لمّا أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ولا شيء ممّا يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خصوصيّاته ﷺ، الّتي لا يشاركه فيها أحدٌ بإجماعٍ من المسلمين. ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النّبيّ ﷺ وتقول :

---

(١) الفقيه المالكي ولي قضاء العراق وتوفّي سنة ٣٤٣هـ.

(٢) تفسير القرطبي ٥٢٧٢ وانظر فتح الباري ٨/ ٥٢٣ رواية السّدّي وتفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٠.

(٣) انظر فتح الباري ١٣/ ٤٠٣ حديث رقم ٧٤٢٠ و٨/ ٥٢٣ حديث رقم ٤٧٨٧.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٤٠٣ حديث رقم ٧٤٢٠.

(٥) فتح الباري ١٣/ ٤٠٤ حديث رقم ٧٤٢١ وانظر في هذا المعنى ما جاء ـ مثلاً ـ في فتح الباري ١٣/ ٤١٢ وتفسير القرطبي ٥٢٧٧.

(٦) تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووي ١/ ٢٠٢ وتفسير القرطبي ٥٢٧٦.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٠ وتفسير الطّبري ٢٢/ ١١ والجلالين.

زوّجكنّ آباؤكنّ وزوّجني الله تعالى. أخرجه النّسائيّ عن أنس بن مالك[1] وروى الإمام مسلم في صحيحه[2] عن أنس قال : لمّا انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد فاذكرها عليّ[3] قال : فانطلق زيدٌ حتّى أتاها وهي تخمّر عجينها. قال : فلمّا رأيتُها عظُمَتْ في صدري حتّى ما أستطيع أن أنظر إليها أنّ رسول الله ﷺ ذكرها[4] فولّيتها ظهري ونكصت على عقبي[5] فقلت : يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك. قالت ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربّي فقامت إلى مسجدها[6] ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[7] قال : فقال ولقد رأيتُنا أنّ رسول الله ﷺ أطْعَمَنا الخُبز واللّحم حين امتدّ النّهار[8].

لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا : لئلاّ يبقى حرجٌ على المؤمنين في تزويج مطلّقات الأدعياء، وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان قبل النّبوّة قد تبنّى زيد بن حارثة، فكان يقال له : زيد بن محمّد. فلمّا قطع الله هذه النّسبة بقوله تعالى[9] : ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدى السّبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾

---

(١) تفسير القرطبي ٥٢٧٥.

(٢) صحيح مسلم ٩/٢٢٧.

(٣) أي فاخطبها لي من نفسها. فيه دليلٌ على أنّه لا بأس أن يبعث الرّجل لخطبة المرأة له من كان زوجها إذا علم أنّه لا يكره ذلك. الإمام النّووي.

(٤) من أجل أنّ رسول الله ﷺ ذكرها.

(٥) معناه أنّه هابها واستجلّها من أجل إرادة النّبيّ ﷺ تزوّجها فعاملها معاملة من تزوّجها ﷺ في الإعظام والإجلال والمهابة.

(٦) أي موضع صلاتها من بيتها. وفيه استحباب صلاة الاستخارة لمن همّ بأمرٍ سواءٌ كان ذلك الأمر ظاهر الخير أم لا.

(٧) يعني نزل قوله تعالى : ﴿فلمّا قضى زيدٌ منها وطرا زوّجناكها﴾ فدخل عليها بغير إذن، لأنّ الله تعالى زوّجه إيّاها بهذه الآية.

(٨) حين امتدّ النّهار أي ارتفع. والشّرح للإمام النّووي.

(٩) سورة الأحزاب ٤ و ٥.

ثمّ زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لمّا طلّقها زيد بن حارثة. ولهذا قال في آية التّحريم[1] : ﴿وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم﴾ ليحترز من الابن الدّعيّ، فإنّ ذلك كان كثيراً فيهم[2].

وكان أمر الله مفعولاً : وكان ما قضى الله من قضاء مفعولاً أي كان كائناً لا محالة. وإنّما يعنى بذلك أنّ قضاء الله في زينب أن يتزوّجها رسول الله ﷺ كان ماضياً مفعولاً كائنا[3].

زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها :

هي زينب بنت جحش بن رئاب الأسديّة[4] من أسد خزيمة، أمّ المؤمنين[5] وكان اسمها بَرّة فسمّاها رسول الله ﷺ زينب[6] ولُدت سنة ثلاث وثلاثين قبل الهجرة. وتوفّيت سنة عشرين هجريّة[7] بمعنى أنّها عاشة ثلاثاً وخمسين سنة[8] تزوّجها رسول الله ﷺ بالمدينة في سنة خمسٍ من الهجرة[9] أي أنّ النّبيّ ﷺ تزوّج بها حينما كانت في الثامنة والثّلاثين من عمرها رضي الله تعالى عنها. وكانت أوّل نساء النّبيّ ﷺ موتاً بعده[10] ونزلت بسببها آية الحجاب[11] وكانت

---

(١) سورة النّساء ٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢١.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١١.

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٤٧.

(٥) الأعلام ٣/ ٦٦.

(٦) تفسير القرطبى ٥٢٤٧ والإصابة ٤/ ٣١٣.

(٧) انظر هنا الأعلام ٣/ ٦٦ والإصابة ٤/ ٣١٤ في ترجمتها وتفسير القرطبى ٥٢٤٨.

(٨) الإصابة ٤/ ٣١٤.

(٩) تفسير القرطبى ٥٢٤٨.

(١٠) الإصابة ٤/ ٣١٤.

(١١) انظر الإصابة ٤/ ٣١٣ وانظر فتح البارى ١٣/ ٤٠٤ حديث رقم ٧٤٢١.

أمّها أميمة بنت عبد المطّلب عمّة رسول الله ﷺ[1] روى قتادة وابن عبّاس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية الكريمة السّادسة والثلاثين من سورة الأحزاب، قال تعالى : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ أنّ رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمّته، فظّنت أن الخطبة لنفسه، فلمّا تبيّن أنّه يريدها لزيد كرهت وأبت وامتنعت فنزلت الآية. فأذعنت زينب حينئذ وتزوّجته. في رواية : فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأنّ زيداً كان بالأمس عبدا. إلى أن نزلت هذه الآية فأذعنا[2] فمكثت زينب عند زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه قريباً من سنة أو فوقها[3] فإذا كان النّبيّ ﷺ تزوجها حينما كانت في الثّامنة والثّلاثين وكانت مكثت عند زيد سنةً أو فوقها يضاف إلى ذلك عدّة الطّلاق فذلك معناه أنّها رضي الله تعالى عنها تزوّجت زيداً رضي الله تعالى عنه حينما كانت في السّادسة والثّلاثين من عمرها. وقد عرفنا أنّ النّبيّ ﷺ قد ذهب إليها وخطبها بأمرٍ من ربّه عزّ وجلّ لزيد بن حارثة وكلّمها عليه الصّلاة والسّلام وجهاً لوجه في شأن زيد قبل نزول آية الحجاب. وقد نزل في شأنها وشأن أخيها عبد الله رضي الله تعالى عنهما الآية الكريمة السّادسة والثّلاثون من سورة الأحزاب. ولأنّ في زواجها من زيدٍ رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ رضيت بزيدٍ زوجاً لها ودخل زيدٌ بها، وقضى وطره منها، ونال الحاجة التي يحتاجها الزّوج من زوجه.

وهكذا تبيّن أنّ الله تعالى يأمر حبيبه ﷺ بأن يذهب إلى زينب وأن يخطبها لزيد وهي البكر. وقد أوحى الله تعالى إلى النّبيّ ﷺ بأنّ زيداً متبنّاه والّذي كان يدعى : زيد بن محمّد، سوف يطلّق زينب وأنّها ستكون احدى زوجاته عليه الصّلاة والسّلام وإحدى أمّهات المؤمنين. وبعد أن يطلّق زيدٌ زينب وتنتهي عدّتها يبعث النّبيّ ﷺ زيداً، زوجها السّابق كي يخطبها للنّبيّ ﷺ. وفي تلك الأثناء

(١) فتح الباري ٨/٥٢٣.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٥٢٦٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٤١٩.

ينزل قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها﴾ ويبادر النّبيّ ﷺ إلى امتثال أمر ربّه عزّ وجلّ، ويتزوّج بزينب الثّيّب الّتى كانت في الثّامنة والثّلاثين من عمرها.

وهكذا يمتثل النّبيّ ﷺ أمر الله تعالى فيزوّج زينب ابنة عمّته أميمة بنت عبد المطلب البكر الّتى كانت في السّادسة والثّلاثين من عمرها لمولاه زيد بن حارثة. ويمتثل النّبيّ ﷺ أمر الله تعالى فيتزوّج هو من زينب الثّيّب الّتى كانت في الثّامنة والثّلاثين من عمرها.

والحكمة من زواجه عليه الصّلاة والسّلام بزينب مطلّقة متبنّاه زيد بن حارثة القضاء على عادة العرب في تنزيل الدّعيّ والمتبنّى منزلة الابن من الصُّلب في تحريم زواج متبنّيه من مطلّقته. وإنّ زواج النّبيّ ﷺ من زينب مطلّقة زيد الّذى تبنّاه عليه الصّلاة والسّلام فكان يقال زيد بن محمّد قد قضى قضاءً نهائياً على العادة البغيضة للعرب في تنزيل المتبنّى منزلة الابن من الصُّلب. وسبق أن قضت نظريّاً سورة الأحزاب الكريمة على عادة التّبنّي في قول الحقّ جلّ وعلا في الآيتين الكريمتين الرّابعة والخامسة من السّورة المدنيّة الكريمة : ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم. والله يقول الحقّ وهو يهدى السّبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله. فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدّين ومواليكم. وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم. وكان الله غفوراً رحيما﴾ وجاء في الآية الكريمة السّابعة والثّلاثين من السّورة الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا. وكان أمر الله مفعولا﴾.

زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه :

هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى[1] اختطف في الجاهلية صغيرا[2] فقد زارت سُعْدَى أمّ زيد بن حارثة قومها وزيدٌ معها، فأغارت خيلٌ لبنى القين بن جَسْر في الجاهليّة على أبيات بنى معن فاحتملوا زيداً وهو غلامٌ يفعة فأتوا به في سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمّته خديجة بأربعمائة درهم. فلمّا تزوّجها رسول الله ﷺ وهبته له[3] علم حارثة والد زيد وعمّه كعب بن شراحيل بمكان زيد فقدما على النّبيّ ﷺ وعرضا عليه فداء زيد فقال النّبيّ ﷺ : أدعوه فخيّروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء. فاختار زيدٌ النّبيّ ﷺ والعبوديّة على أبيه وعمّه وأهل بيته والحرّيّة وقال لهم : إنّى قد رأيت من هذا الرّجل شيئاً ما أنا بالّذى أختار عليه أحداً. فلمّا رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال : اشهدوا أنّ زيداً ابنى يرثنى وأرثه. فلمّا رأى ذلك أبوه وعمّه طابت أنفسهما وانصرفا فدعي زيد بن محمّد حتّى جاء الله بالإسلام[4] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنّا ندعوه إلاّ زيد بن محمّد حتّى نزل القرآن : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[5] وكان زيدٌ رضي الله تعالى عنه أحد السّابقين إلى الإسلام[6].

وكان سيّداً كبير الشأن جليل القدر حبيباً إلى النّبيّ ﷺ، يقال له الحِبّ، ويقال لابنه أسامة : الحبّ ابن الحِبّ. قالت عائشة رضي الله عنها : ما بعثه رسول الله ﷺ في سريّة إلاّ أمّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه أحمد[7] وعن

---

(١) الإصابة ١/ ٥٦٣ ونسبه في ترجمة ابنه أسامة الإصابة ١/ ٣١.

(٢) الأعلام ٣/ ٥٧ : «زيد بن حارثة».

(٣) الإصابة ١/ ٥٦٣.

(٤) انظر الإصابة ١/ ٥٦٣ و ٥٦٤.

(٥) فتح البارى ٨/ ٥١٧ حديث رقم ٤٧٨٢.

(٦) الإصابة ١/ ٥٦٤ وانظر تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٠٢.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤١٩

سلمة بن الأكوع قال : غزوت مع النّبيّ ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمّره علينا رسول الله ﷺ. أخرجه البخاري[1] وشهد زيد بن حارثة بدراً وما بعدها. وقُتِل في غزوة مؤتة وهو أمير[2] في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة[3] وكان هو البشير بنصر المؤمنين يوم بدر، وكان من الرّماة المذكورين[4] واستخلفه النّبيّ ﷺ في بعض أسفاره على المدينة[5] وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمّته زينب بنت جحش الأسديّة[6] على نحو ما مرّ بنا. وجاء في صحيحي البخارى ومسلم عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال حين أمّر أسامة بن زيد فطعن بعض المنافقين : إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل. وايْمُ الله إن كان لخليقاً للإمارة. وإنْ كان لَمِنْ أحبّ النّاس إليّ، وإنّ هذا لَمِنْ أحبّ النّاس إليّ بعده[7].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : إنّ هذه الآية : ﴿وتخفى في نفسك ما الله مبديه﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة[8] وعن أنسٍ قال : جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النّبيّ ﷺ يقول : اتّق الله وأمسك عليك زوجك. قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه. قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النّبيّ ﷺ تقول : زوّجكنّ أهاليكنّ وزوّجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات[9].

---

(١) الإصابة ١/ ٥٦٤.

(٢) الإصابة ١/ ٥٦٤.

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٠٣.

(٤) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٠٢.

(٥) الإصابة ١/ ٥٦٤ وفي الأصل : إلى المدينة.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ٤١٩.

(٧) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٠٣ وانظر صحيح مسلم ١٥/ ١٩٥و١٩٦.

(٨) فتح البارى ٨/ ٥٢٣ حديث رقم ٤٧٨٧.

(٩) فتح البارى ١٣/ ٤٠٣ حديث رقم ٧٤٢٠.

معنى الآية الكريمة

واذكر يا محمّد إذ تقول لزيد بن حارثة، الّذى أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإسلام، فكان من السّابقين إليه، وأنعمت عليه بنعمة العتق من الرّقّ، أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش، واتق الله تعالى في أمر طلاقها. وتخفى يا محمّد في نفسك ما الله تعالى مبديه ممّا أوحيت إليك من أنّ زينب ستكون إحدى زوجاتك وإحدى أمهات المؤمنين بعد أن يطلّقها زيدٌ وتنتهى عدّتها. وتخشى النّاس أن يقولوا تزوّج محمّدٌ مطلّقة متبنّاه والله تعالى أحقّ أنّ تخشاه وحده لا شريك له، وقد أمرتك يا محمّد بأن تخطب زينب بنت جحش البكر ابنة عمّتك لزيد بن حارثة فامتثلت أمرى، وقد أوحيت إليك بأنّك سوف تتزوّج زينب بعد طلاقها وانقضاء عدّتها لحكمة اقتضيتها وهي أن أقضي على عادة العرب البغيضة في تنزيل المتبنّى منزلة الابن من الصّلب في تحريم زواج المتبنّى مطلّقة متبنّاه.

إنّنى أنا الله تعالى آمرك يا محمّد بأن تتزوّج زينب الثّيّب الّتى قضى زيدٌ وطره منها وعاشرها معاشرة الأزواج. وها أنت ذا، أيّها الرّسول الكريم، والنّبيّ العظيم، تمتثل أمرى، فتتزوّج زينب الثّيب وهي في الثّامنة والثّلاثين من عمرها، وبذلك تتحقّق حكمتى عمليّاً بزواجك فعلاً من زينب في قولى: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا﴾ بعد أن تحقّقت حكمتى نظريّاً في قولى[1]: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدى السّبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدّين ومواليكم. وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم. وكان الله غفوراً رحيما﴾.

إنّ حكمتى اقتضت ألاّ يكون على المؤمنين حرجٌ في أن يتزوّجوا مطلّقات من تبنّوهم إذا عاشر المتبنّون والأدعياء زوجاتهم معاشرة الأزواج. وأنت يا محمّد الأسوة الحسنة للمؤمنين. وكان أمر الله تعالى مفعولاً بزواجك من زينب والقضاء على العادة البغيضة للعرب في تحريم زواج المتبنّى مطلّقة متبنّاه زاعمين أنّ المتبنّى

---

(١) سورة الأحزاب ٤ و ٥.

ابنٌ على الحقيقة وهذا كذبٌ وغير صحيح وبالتّالي لا يدخل المتبنَّى في قولي(١) : ﴿وحلائلُ أبنائكم الّذين من أصلابكم﴾ لأنّ المتبنَّى ليس ابناً من الصّلب، وبالتالي فإنّ مطلّقته ليست من المحرّمات من النّساء على المتبنِّي.

تعقيب :

نودّ أن نعقّب على دراستنا المستفيضة للآية الكريمة بذكر بعض الأمور الّتي تزيد الصّورة إشراقاً بإذن الله تعالى :

١ ـ لقد أنعم الله تعالى على زيد بن حارثة بالعديد من النّعم، منها أنّه من السّابقين إلى الإسلام، وأنّ الرّسول ﷺ منّ عليه بالعتق من الرّق قبل البعثة. وقد تبيّن أنّه أصلاً من العرب الأحرار، ولكنّه سُرِق وهو صغير واستُرِقّ. ومنها أنّه تزوّج زينب بنت جحش ابنة عمّة النّبيّ ﷺ، وأنّ النّبيّ ﷺ ذهب بأمر ربّه عزّ وجلّ إليها وكلّمها وخطبها لزيد رضي الله تعالى عنه. وحينما استنكفت زينب أن تتزوّج زيداً واستنكف أخوها عبد الله رضي الله تعالى عنهما نزلت الآية الكريمة السّادسة والثّلاثون من سورة الأحزاب فتلاها النّبيّ ﷺ على زينب بنت جحش، فبادرا إلى الموافقة على أن تتزوّج زيداً، لأنّ في ذلك رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ. ومنها أنّ زيداً رضي الله تعالى عنه هو الشّخص الوحيد من أفراد الأمّة المحمّدية الّذي جاء اسمه في القرآن الكريم بصريح اللّفظ، تعويضاً من الله تعالى له بعد أن أصبح ينسب لأبيه حارثة فيقال زيد بن حارثة وليس زيد بن محمّد كما كان يُدْعَى من قبل. لقد أمر الله تعالى محمّداً ﷺ أن يخطب زينب لزيد لحكمة اقتضتها مشيئته عزّ وجلّ بأن يُقْضي عملياً على عادة العرب البغيضة بمنع زواج المتبنِّي مطلّقة متبنّاه، وها هو ذا محمّد ﷺ يزوّجه ربّه عزّ وجلّ زينب مطلّقة متبنّاه زيدٍ بعد انقضاء عدّتها، إكراماً من الله تعالى لها لرضاها بقضائه عزّ وجلّ.

٢ ـ أخفى النّبيّ ﷺ في نفسه ما أوحى الله تعالى إليه بأنّ زينب بنت جحش ستكون إحدى زوجاته عليه الصّلاة والسّلام بعد أن يطلّقها زيدٌ وتنقضي عدّتها لأنّ هذا الوحي خاصٌّ به عليه الصّلاة والسّلام. وحينما أمر الله تعالى محمّداً ﷺ بأن يتزوّج هو نفسه زينب بنت جحش الثّيّب بادر عليه الصّلاة والسّلام إلى تنفيذ أمر

(١) سورة النساء ٢٣.

ربّه عزّ وجلّ، تماماً كما بادر من قبل إلى تنفيذ أمر ربّه عزّ وجلّ فخطب زينب البكر مشافهة لزيد بن حارثة. لقد ظنّت أوّل الأمر أنّ النّبيّ ﷺ يريدها لنفسه ففرحت، وحينما علمت أنّه يخطبها لزيد استنكفت هي وأخوها حتّى تلا عليهما ﷺ الآية الكريمة السّادسة والثّلاثين الّتي نزلت في شأنها هي وأخيها فرضيت هي ورضي أخوها أن تتزوّج بزيد بن حارثة.

٣ ـ تزوّج النّبيّ ﷺ زينب بنت جحش الثّيّب وهي في الثّامنة والثّلاثين من عمرها، وتزوجّها زيدٌ وهي بكر حينما كانت في السّادسة والثّلاثين.

٤ ـ خشي النّبيّ ﷺ المنافقين أن يقولوا أذن لزيدٍ متبنّاه أن يطلّق زوجته كي يتزوّجها.

٥ ـ إنّ ربّ العزّة والجلال هو الّذي يعاتب محمّداً ﷺ بالقول : ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه﴾ بسبب قوله عليه الصّلاة والسّلام لزيد كما جاء في الآية الكريمة : ﴿أمسك عليك زوجك واتّق الله﴾ لأنّه عليه الصّلاة يعلم أنّ زيداً سيطلّق زينب وأنّها ستكون إحدى أمّهات المؤمنين. عن عليّ بن الحسين بن عليّ : «فلمّا تشكّى زيدٌ للنّبيّ ﷺ خلق زينب وأنّها لا تطيعه وأعلمه أنّه يريد طلاقها قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصيّة : اتّق الله في قولك وأمسك عليك زوجك»(١).

٦ ـ شاء الله تعالى أن يكون القضاء العمليّ على عادة العرب البغيضة في منع زواج المتبنّى مطلّقة متبنّاه في شخص المصطفى ﷺ ذي الخلق العظيم الّذي يمتثل أمر ربّه حينما يخطب زينب البكر لزيد بن حارثة، وحينما يتزوّج عليه الصّلاة والسّلام زينب الثّيب بقول الله تعالى : ﴿فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها﴾ إنّ ربّ العزة والجلال هو الّذي بيّن في محكم كتابه بأنّ زيداً عاشر زينب معاشرة الأزواج وقضى منها وطره ونال حاجته.

٧ ـ آية العتاب هذه تبيّن امتثال المصطفى ﷺ المطلق للوحي. وحينما يتجاوز المصطفى ﷺ الفاضل عند الله تعالى إلى المفضول يعاتبه الله تعالى الحكيم العليم الخبير. وآية العتاب هذه من أشقّ آيات العتاب على المصطفى ﷺ إن لم تكن أشقّها.

(١) تفسير القرطبي ٥٢٧٢.

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

من حرج : من إثم(١).

فيما فرض الله له : فيما أحلّ الله له(٢).

سنّة الله : سنّة اسمٌ وضع موضع المصدر فهو مفعولٌ مطلق منصوب كصنع الله ووعد الله(٣) كأنّه قال : فعلنا ذلك سنّةً منّا(٤) أي هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيءٍ وعليهم في ذلك حرج(٥).

وكان أمر الله قدراً مقدورا : وكان أمر الله قضاءً مقضيّا(٦).

الّذين يبلّغون رسالات الله : سنّة الله في الّذين خلوا من قبل محمّد من الرّسل الّذين يبلّغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه(٧).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١١.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١١.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٦٥.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٢.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٢.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٢.

وكفى بالله حسيبا : وكفاك يا محمّد بالله حافظاً لأعمال خلقه ومحاسباً لهم عليها[1].

ما كان على النّبيّ محمّد ﷺ من إثم فيما أحلّ الله تعالى له من زوجات، ومنهنّ زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها. تلك هي سنّة الله تعالى في النّبيّين الّذين مضوا قبل محمّد ﷺ، فليس محمّدٌ عليه الصّلاة والسّلام بِدْعاً من الرّسل. وكان أمر الله تعالى قضاءً مقضيّا، لا معقّب لحكمه عزّ وجلّ ولا رادّ لقضائه. تلك هي سنّة الله تعالى الّتي لا تتغيّر ولا تتبدّل في النّبيّين السّابقين الّذين يبلّغون رسالات الله تعالى ويؤدّون أماناته، والّذين يخشون الله تعالى وحده لا شريك له ولا يخشون أحداً إلاّ الله تعالى. وأنت يا محمّد خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه. وكفاك يا محمّد بالله تعالى حافظاً لأعمال خلقه محصياً لها مجازياً عليها ثواباً أو عقابا، جنّةً أو نارا.

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢/١٢

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم: ما كان أيّها النّاس محمّدٌ أبا زيد بن حارثة ولا أبا أحدٍ من رجالكم، أي لم يلده محمّد فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إيّاها(١) وإن كان قد تبنّاه، فإنّه صلوات الله عليه وسلامه لم يعش له ولدٌ ذكر حتّى بلغ الحلم. فإنّه وُلِد له القاسم والطّيّب والطّاهر من خديجة فماتوا صغارا. وولد له إبراهيم من ماريه القبطيّة فمات أيضاً رضيعا. وكان له من خديجة أربع بنات، زينب ورقيّة وأمّ كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين. فمات في حياته ثلاث وتأخّرت فاطمة حتّى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثمّ ماتت بعده لستّة أشهر(٢).

ولكن رسول الله : ولكن كان رسول الله(٣).

وخاتم النّبيّين : وآخر النّبيّين(٤) الّذى ختم النّبوّة فطبع عليها فلا تفتح لأحدٍ بعده إلى قيام السّاعة(٥).

وكان الله بكل شيءٍ عليماً : وكان الله بكلّ شيءٍ من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علمٍ لا يخفى عليه شيء(٦).

ما كان محمّد ﷺ أبا أحدٍ من رجالكم أيّها النّاس، فهو عليه الصّلاة

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٢.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣، والجلالين.

(٤) لسان العرب : (ختم).

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٢.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٢.

والسّلام ليس أبا زيد بن حارثة وليس أبا غير زيد من الرّجال، فإنّ كلّ أولاده الذّكور ﷺ ماتوا صغاراً قبل أن يبلغوا الحُلُم. وبناءً على ذلك فإنّ زيد بن حارثة ليس ابن محمّد ﷺ من صلبه ولكنّه متبنّاه فمن حقّه عليه الصّلاة والسّلام أن يتزوّج مطلّقة زيد زينب بنت جحش ولا حرج عليه الصّلاة والسّلام ولا إثم في ذلك.

إنّ محمّداً ﷺ إذا لم يكن أبا أحد من رجال المؤمنين فإنّه رسول الله تعالى وخاتم النّبيّين وآخرهم، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. وكان الله تعالى بكلّ شيء عليماً، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وممّا أحاط جلّ وعلا به علماً من يستحقّ من البشر أن يكون رسول الله تعالى وخاتم النّبيّين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه.

والمعروف أنّ نعمتي الرّسالة والنّبوّة أكبر نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده، وأنّهما محض فضلٍ من الله تعالى، وأنّ نعمة الرّسالة أكبر من نعمة النّبوّة، وأنّ نعمة النّبوّة هي الطّريق الوحيد المفضي إلى نعمة الرّسالة. وبناءً على ذلك فكلّ رسولٍ نبيّ، وليس كلّ نبيٍّ رسولا. والمعروف أنّ الرّسول والنّبيّ يشتركان في إيحاء الله تعالى إليهما، وإرسال الملائكة إليهما، ويزيد الرّسول بأنّ الله تعالى يرسله إلى الأمّة يدعوهم إلى الله بشريعته وأمره. وبهذا يتبيّن أنّ الأنبياء لم يرسلوا إلى أممهم بينما اختصّت الرّسل عنهم بإرسالهم إلى الأمم(١).

إنّ القول في الآية الكريمة : ﴿ولكن رسول الله﴾ يشير إلى كبرى النّعم الّتي ينعم الله تعالى بها على عبدٍ من عباده وهي نعمة الرّسالة. وقد اصطفى الله تعالى محمّداً ﷺ بهذه النعمة. إنّ محمّداً ﷺ رسول الله تعالى، بل أحد أولى العزم الخمسة من الرّسل وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد ﷺ، بل زعيم أولى العزم من الرّسل على نحو ما تبيّن من الآية الكريمة السّابعة في هذه السّورة الكريمة، بل أشرف المرسلين، عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه.

وإن القول في الآية الكريمة : ﴿ وخاتم النّبيّين﴾ يشير إلى نعمة كبرى من الله تعالى على محمّدٍ ﷺ وهي نعمة ختم النّبوّة. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا

(١) انظر هنا طريق الهجرتين وباب السّعادتين لابن القيّم ٤٥٥.

يجيء فيها القول : «وخاتم المرسلين» إنّما يجيء فيها القول : ﴿وخاتم النّبيّين﴾ لأنّ هذا القول هو وحده الّذى يقرّر ختم النّبوّة. إنّ النّبوّة حينما كانت الطّريق الوحيد المؤدّى إلى الرّسالة كبرى النّعم ففى النّصّ على ختم النّبوّة ختمٌ ضمنيٌ للرّسالة، لأنّ الطّريق المؤدّى إلى الرّسالة وهو النّبوّة قد خُتم فلا يمكن الوصول إلى الرّسالة.

والحقيقة أنّنا أمام مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم حيث إنّ القول : ﴿ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين﴾ يثبت للمصطفى ﷺ نعمة الرّسالة، ونعمة ختم النّبوّة، فمحمّدٌ ﷺ رسولٌ من الله، ونبيٌ، وخاتم النّبيّين.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ مَثَلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة[1] من زاوية. فجعل النّاس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ وُضِعَتْ هذه اللّبنة؟ قال : فأنا اللّبنة وأنا خاتم النّبيّين[2] وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : فُضّلت على الأنبياء بستٍ : أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرّعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافّة، وختم بي النّبيّون» رواه مسلم[3].

والأحاديث كثيرةٌ في ختم النّبوّة.

---

(١) بفتح اللّام وكسر الموحّدة بعدها نون، وبكسر اللّام وسكون الموحّدة أيضا : هي القطعة من الطّين تعجن وتُجبل وتعدّ للبناء. ويقال لها ما لم تُحرَق لبنة، فإذا أحرقت فهي آجرّة. ومعنى تُجبل تُطبَع وتُشكّل.

(٢) فتح البارى ٦/ ٥٥٨ حديث رقم ٣٥٣٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٤.

(٣)
(الله تعالى يصلّى على المؤمنين والنّبيّ ﷺ سراجٌ منير)
الآيات (٤١ ـ ٤٨)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

يا أيّها الذين آمنوا : يا أيّها الّذين صدّقوا الله ورسوله(١).

اذكروا الله : بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم(٢).

ذكراً كثيراً : فلا تخلوا أبدانكم من ذكره في حال من أحوال طاقتكم ذلك(٣) عن ابن عبّاس، إنّ الله لم يفرض على عباده فريضةً إلاّ جعل لها حداً معلوماً، ثمّ عذر أهلها في حال عذر، غير الذّكر، فإنّ الله لم يجعل له حداً ينتهى إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلاّ مغلوباً على تركه(٤) فقال(٥) : ﴿فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ باللّيل والنّهار، في البرّ والبحر، وفي السّفر والحضر، والغنى والفقر، والصّحة والسّقم، والسّرّ والعلانية، وعلى كلّ حال. وقال : ﴿وسبّحوه بكرةً وأصيلا﴾ فإذا فعلتم ذلك صلّى عليكم هو وملائكته(٦).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣.

(٤) في تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣ : : «إلاّ مغلوبا على عقله».

(٥) سورة النّساء ١٠٣.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٧ وتفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣.

وسبحوه : التّسبيح تنزيه الله تعالى، وجُعِل التّسبيح عامّاً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيّة(١).

بكرةً وأصيلاً : أوّل النّهار وآخره(٢) وعند الصّباح والمساء، كقوله(٣) : ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد في السّماوات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون﴾(٤) وصلاة الغداة وصلاة العصر(٥).

هو الّذى يصلّي عليكم : الصّلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة. حكاه البخارى(٦) عن أبى العالية(٧) وقيل : الصّلاة من الله الرّحمة(٨) أي يرحمكم(٩).

وملائكته : وأمّا الصّلاة من الملائكة فبمعنى الدّعاء للنّاس(١٠) والاستغفار(١١) كقوله(١٢) : ﴿الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للّذين آمنوا ربّنا وَسِعْتَ كلّ شيء رحمةً وعلماً فاغفر للّذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربّنا وأدخلهم جنّات عَدْن الّتى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم. إنّك أنت العزيز الحكيم.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سبح» ٢٩٢.

(٢) الجلالين.

(٣) سورة الرّوم ١٧ و ١٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٨.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣.

(٦) فتح البارى ٨/ ٥٣٢ وصحيح البخارى ٦/ ١٥١.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٨.

(٨) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٨.

(٩) الجلالين.

(١٠) فتح البارى ٨/ ٥٣٢ وصحيح البخارى ٦/ ١٥١.

(١١) انظر الجلالين.

(١٢) سورة غافر ٧-٩.

وقهم السّيّئات﴾ الآية[1].

ليخرجكم من الظّلمات إلى النّور : أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضّلال، إلى نور الهدى واليقين[2].

وكان بالمؤمنين رحيما : وكان بالمؤمنين به ورسوله ذا رحمة أن يعذّبهم وهم له مطيعون، ولأمره متّبعون[3] أي في الدّنيا والآخرة. أمّا في الدّنيا فإنّه هداهم إلى الحقّ الّذى جهله غيرهم، وبصّرهم الطّريق الّذى ضلّ عنه وحاد عنه مَنْ سواهم من الدّعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطّغام[4] وأمّا رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقّونهم بالبشارة بالفوز بالجنّة والنّجاة من النّار، وما ذاك إلاّ لمحبّته لهم ورأفته بهم[5].

تحيّتهم يوم يلقونه سلام : الظّاهر أنّ المراد ـ والله أعلم ـ ﴿تحيّتهم﴾ أي من الله تعالى يوم يلقونه : ﴿سلام﴾ أي يوم يسلّم عليهم، كما قال تعالى[6] : ﴿سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم﴾[7] قيل بلسان الملائكة[8] وقيل: تحيّة هؤلاء المؤمنين يوم القيامة في الجنّة سلام. يقول بعضهم لبعضٍ أَمَنَةً لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أن يعذّبنا بالنّار أبدا[9] قلت : وقد يستدلّ بقوله تعالى[10] : ﴿ دعواهم فيها

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٨. وانظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣.

(٤) الطّغام، بفتح الطّاء : أوغاد النّاس للواحد والجمع.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٨.

(٦) سورة يس ٥٨.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٩.

(٨) الجلالين.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٣

(١٠) سورة يونس ١٠.

سبحانك اللّهمّ وتحيّتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين﴾[1].

وأعدّ لهم أجراً كريما : هو الجنّة[2].

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ اذكروا الله تعالى بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكراً كثيراً، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم وفي كلّ الأحوال، وسبّحوا الله تعالى وأثنوا عليه بما هو أهله صباحاً ومساءً وفي كل الأوقات.

ويلاحظ أنّ الذكر هو الشّعيرة الوحيدة الّتى لم يضع الشّارع الحكيم حداً لها لسهولة الذّكر في كلّ الأحوال والأوقات.

إنّ الله تعالى هو الّذى يصلّى عليكم أيّها المؤمنون ويرحمكم ويثنى عليكم في الملأ الأعلى. وهكذا يذكر الله تعالى عباده الصّالحين كما يذكرونه عزّ وجلّ. وكما يصلّى الله تعالى على المؤمنين ويثنى عليهم ويرحمهم يصلّى عليهم الملائكة الأطهار ويستغفرون الله تعالى لهم. جاء في سورة غافر[3] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للّذين آمنوا ربّنا وسعت كلّ شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للّذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربّنا وأدخلهم جنّات عَدْنٍ الّتى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم. إنّك أنت العزيز الحكيم. وقهم السّيئات. ومن تق السّيّئات يومئذٍ فقد رحمته. وذلك هو الفوز العظيم﴾.

وإنّ الصّلاة من الله تعالى والملائكة على المؤمنين لِيَسْتَمِرَّ إخراج الله تعالى لهم من ظلمات الضّلالة والجهل إلى نور الهدى والعلم. وكان الله سبحانه وتعالى رحيماً بالمؤمنين في الأولى والآخرة. في الحياة الأولى يأخذ الله تعالى بأيدى المؤمنين إلى الصّراط المستقيم وينير لهم السّبيل، وفي الآخرة يدخلهم الجنّة الّتى عرّفها لهم ووفّقهم لعمل الصّالحات الّتى نالوا بها الأجر العظيم والخير العميم.

وتحيّة هؤلاء المؤمنين يوم القيامة سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم وأمنٌ وطمأنينةٌ

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٩.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٤.

(٣) الآيات (٧-٩) وانظر الآية الكريمة الخامسة من سورة الشّورى.

على لسان الملائكة الأطهار. إضافةً إلى أنّ السّلام تحيّة بعض المؤمنين بعضاً. وأعدّ الله تعالى لهم أجراً عظيماً هي الجنّة الّتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ
وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾

يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهدا : يا محمّد إنّا أرسلناك شاهداً على أمّتك بإبلاغك إيّاهم ما أرسلناك به من الرّسالة(١).

ومبشّراً : ومبشّرهم بالجنّة إن صدّقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربّك(٢).

ونذيرا : ونذيراً من النّار أن يدخلوها فيعذّبوا بها إن هم كذّبوك وخالفوا ما جئتهم به من عند الله(٣).

وداعياً إلى الله : وداعياً إلى توحيد الله وإفراد الألوهة له وإخلاص الطّاعة لوجهه، دون كلّ من سواه من الآلهة والأوثان(٤).

بإذنه : بأمره إيّاك بذلك(٥).

وسراجاً منيرا : وضياءً لخلقه، يستضيء بالنّور الّذي أتيتهم به من عند الله

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ١٤.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ١٤.

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/ ١٤.

(٤) تفسير الطّبري ٢٢/ ١٤.

(٥) تفسير الطّبري ٢٢/ ١٤.

عبادُه. منيرا : ضياءً ينير لمن استضاء بضوئه وعمل بما أمره. وإنّما يعنى بذلك أنّه يهدى به من اتّبعه من أمّته(١)

فضلاً كبيراً : هو الجنّة(٢).

ولا تطع الكافرين والمنافقين : ولا تطع لقول كافرٍ ولا منافقٍ فتسمع منه دعاءه إيّاك إلى التّقصير في تبليغ رسالات الله إلى من أرسلك بها إليه من خلقه(٣).

ودع أذاهم : وأعرض عن أذاهم لك واصبر عليه ولا يمنعك ذلك عن القيام بأمر الله في عباده والنّفوذ لما كلّفك(٤).

وكفى بالله وكيلا : وحسبك بالله قيّماً بأمورك وحافظاً لك وكالئا(٥).

من خصوصيات المصطفى ﷺ أنّ ربّ العزّة والجلال يخاطبه وَحْدَه من بين سائر النّبيّين والمرسلين بأحد وصفيه العظيمين : ﴿يا أيّها النّبيّ﴾ ﴿يا أيّها الرّسول﴾ وليس باسمه عليه الصّلاة والسّلام. وإنّ ربّ العزّة والجلال ليجمع للنّبيّ ﷺ في القول : ﴿يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك﴾ بين كبرى النّعمتين، نعمة النّبوّة، ونعمة الرّسالة، وفي هذا تأكيدٌ لما جاء في الآية الكريمة الأربعين عنه ﷺ في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين﴾ وهذا نوعٌ من الرّباط بين آيات السّورة الكريمة وأقسامها.

إنّ ربّ العزّة والجلال ينادى حبيبه ﷺ، النّبيّ الكريم والرّسول العظيم، ويؤكّد له أنّه أرسله عليه الصّلاة والسّلام شاهداً على أمّته بأنّه بلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، وكان لها الناصح الأمين، وبأنّه مبشّر المؤمنين والطّائعين بالجنّة والثّواب، ومنذر الكافرين والعاصين بالنّار والعذاب، وبأنّه عليه الصّلاة والسّلام كذلك داعٍ

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٤.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٤.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٤.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٤.

إلى توحيده عزّ وجلّ بإذنه تعالى وبأمره. هذا إلى أنّه عليه الصّلاة والسّلام هو السّراج المنير للإنسانيّة، يهتدون بهديه، ويستضيئون بضوئه، ويستنيرون بنوره. إنّه عليه الصّلاة والسّلام هو العافية للأبدان والصّحّة للأجسام، فهو كالشّمس مصدر الدّفء ومنبع العافية. وإنّه عليه الصّلاة والسّلام هو النّور للأبصار، والهدى للبصائر، فهو كالقمر الّذى يهدى السّائرين في حنادس الّليل المظلم، والّذى يعكس ضياء الشّمس نوراً خالص النّفع، كامل الخير، تامّ الفائدة.

ولمّا كان للنّاس ثلاثة مواقف من دعوة الرّسول ﷺ: الإيمان، والكفر وإعلانه حينما يأنس الكافر في نفسه القدرة على إعلان الكفر، والكفر وإبطانه وإعلان الإيمان حينما لا يأنس الكافر في نفسه القدرة على إعلان الكفر، فإنّ السّياق يتحدّث عن هذه الفئات الثّلاث. وهذه الفئات الثّلاث هي المؤمنون، والكافرون، والمنافقون. وكلّ هذه الفئات موجودةٌ آنذاك في بيئة المدينة المنوّرة، بل إنّ النّفاق قد استشرى، ثمرةً نكدةً لإحساس الكافرين بقهر الإسلام لهم، خاصّة بعد هزيمة الأحزاب ويهود بنى قريظة، في أواخر سنة خمس من الهجرة.

إنّ الله سبحانه وتعالى يأمر النّبيّ الكريم والرّسول العظيم بأن يبشّر المؤمنين، بالأجر الكريم، والثّواب العظيم، في جنّات النّعيم. وبشأن الكافرين والمنافقين ينهى الحقّ جلّ وعلا رسوله الكريم عن طاعة هؤلاء المثبّطين عن فعل الخيرات، النّاهين عن المعروف، الآمرين بالمنكر، ويأمره بأن يدع أذى الفريقين له عليه الصّلاة والسّلام حتّى يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً في حقّهما، وبأن يتوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له. وكفى بالله تعالى وكيلاً لمن توكّل عليه، وراعياً مصالحه، وحافظاً وكالئاً له.

وواضحٌ أنّ آيات هذا القسم الثّمان يتعلّق أربعٌ منها بالذّات العليّة، ويتعلّق أربعٌ منها بالمصطفى ﷺ السّراج المنير، وتتعلّق الآيات الأربع الأُول بحقّ الله تعالى على المؤمنين أن يُذْكر ذكراً كثيراً وينزّه ويُشكر، وبثواب الذّاكرين المسبّحين الشّاكرين. وسبق أن تبيّن أنّ الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين الّتى تتحدّث عن بعض نعوت المؤمنين والمؤمنات تُختم بذكر المسلمين والمسلمات الله تعالى ذكراً كثيراً، كما

تتحدّث عن أجر المسلمين العظيم. وإنّ الحديث عن الذّكر والثّواب نوعٌ من الرّباط بين آيات السّورة الكريمة وأقسامها. وسبق أن تبيّن كذلك أنّ الآيات الكريمات الثّلاث الأُول من السّورة الكريمة تنهى النّبيّ ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين، وتأمره عليه الصّلاة والسّلام بأن يتوكّل على الله تعالى. وإنّ النّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين والأمر بالتّوكّل على الله تعالى نوعٌ من الرّباط بين آيات السّورة الكريمة وأقسامها.

النّبيّ الكريم والرّسول العظيم سراجٌ منير:

نودّ أن نقف ملياً وعلى جهة الخصوص عند وصف السّياق المصطفى ﷺ بأنّه سراجٌ منير، وأن نبيّن مظهراً من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا﴾.

فما معنى السّراج؟ السّراج: المصباح الزّاهر[1] بفتيلة ودُهْن. ويعبَّر به عن كلّ مضيء[2] والسّراج: الشّمس[3] والشمس نجم. وعرّف العلماء النّجم بأنّه أحد الأجرام السّماويّة المضيئة بذاتها، ومواضعها النّسبيّة في السّماء ثابتة، ومنها الشّمس[4] وعرّف العلماء الشّمس بأنّها النّجم الرّئيس الّذى تدور حوله الأرض وسائر كواكب المجموعة الشّمسيّة[5].

ويرتبط بالنّجم الكوكب. وعرّف العلماء الكوكب بأنّه جرمٌ سماويّ يدور حول الشّمس ويستضيء بضوئها. وأشهر الكواكب مرتّبةً على حسب قربها من الشّمس: عُطارِد، الزُّهَرة، الأرض، المرّيخ، المشترى، زُحَل، يورانس، نبتون، بلوتون[6].

---

(١) لسان العرب: «سرج».

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سرج» ١/٣٠٣.

(٣) لسان العرب: «سرج» ومفردات الرّاغب الأصفهاني: «سرج» ١/٣٠٣.

(٤) المعجم الوسيط: «نجم».

(٥) المعجم الوسيط: «شمس».

(٦) المعجم الوسيط: «الكوكب».

ويرتبط بالشّمس القمر. وعرّف العلماء القمر بأنّه جرمٌ سماويٌّ صغير يدور حول كوكبٍ أكبر منه ويكون تابعاً له(١).

وبذلك يكون النّجم مصدراً للطّاقة كالشّمس، ويصدر عن النّجم الضّياء أو الضّوء مثل ضياء الشّمس أو ضوئها.

وبذلك يكون الكوكب غير مصدرٍ للطّاقة ويكون دوره تحويل ضياء النّجم نوراً، كالقمر الّذى يعكس ضياء الشّمس نوراً ويقوم بدور المرآة العاكسة الّتى تحوّل الضّوء نورا.

إنّ هذه الحقائق العلميّة الّتى تمّ اكتشافها أخيراً، وإنّ الفروق الدّقيقة بين النّجم والكوكب، والضّوء والنّور، قد قرّرها القرآن الكريم الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد. وقد أفاد العلماء المسلمون من هذه الحقائق العلميّة القرآنية وصحّحوا بها الأخطاء العلميّة الّتى كانت شائعةً ومقترنةً ببعض الأسماء اللّامعة في مجال العلم. ومن هؤلاء العلماء المسلمين النّابهين محمّد بن الحسن بن الهيثم ٣٥٤-٤٣٠ هـ ٩٦٥-١٠٣٨م وهو مهندسٌ من أهل البصرة ويلقّب ببطليموس الثّاني(٢).

جاء في سورة يونس(٣) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿هو الّذى جعل الشّمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السّنينَ والحساب. ما خلق الله ذلك إلاّ بالحقّ. يفصّل الآيات لقومٍ يعلمون﴾ وجاء في سورة نوح قول(٤) الحقّ جلّ وعلا : ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماواتٍ طباقاً. وجعل القمر فيهنّ نوراً

---

(١) المعجم الوسيط : «قمر».

(٢) الأعلام ٦/ ٨٣.

(٣) الآية ٥.

(٤) الآية ١٥ و ١٦

وجعل الشّمس سراجا﴾ وجاء في سورة الفرقان[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿تبارك الّذى جعل في السّماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا﴾ وجاء في سورة النّبأ[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وجعلنا سراجاً وهّاجا﴾.

ممّا سبق يتبيّن أنّ الشّمس نجمٌ وسراجٌ وهّاجٌ مشتعلٌ يصدر منه الضّوء أو الضّياء بمعنى أنّه ذاتيّ الطّاقة.

وممّا سبق يتبيّن أنّ القمر كوكبٌ غير مشتعلٍ وغير ذاتيّ الطّاقة وأنّه يقوم بدور المرآة فيعكس ضوء الشّمس ويجعل ضياءها نورا.

هذه هي المعانى الّتى قرّرها القرآن الكريم وأكّدها بعد ذلك العلم.

فما الّذى يلاحظ على قول الحقّ جلّ وعلا نعتاً للنّبيّ الكريم والرّسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النّبيّين والمرسلين : ﴿وسراجاً منيرا﴾؟ يلاحظ أنّه يتمّ الجمع بين الشّمس في القول : ﴿وسراجاً﴾ وبين نور القمر وليس ضوء الشّمس في القول : ﴿منيرا﴾ فما الحكمة من الجمع بين ما يخصّ كلاً من الشّمس والقمر في نعت محمّد بن عبد الله ﷺ في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿يا أيها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا﴾؟

الحكمة من الجمع بين ما يخصّ كلاً من الشّمس والقمر أنّ الآية الكريمة تجمع للمصطفى ﷺ خير ما في كلٍّ من الشّمس والقمر. إنّ الشمس مصدرٌ للطّاقة، ومنبعٌ للدّفء، ويصدر عنها الضّوء، والحرارة للأكوان، والعافية للأبدان. وإنّ المصطفى ﷺ للإنسانيّة بمثابة الشّمس للكون. إنّ أشعّة الشّمس سابغة، وضياءها غامر، ودفئها شامل. وإنّ محمّداً ﷺ هو الأسوة الحسنة بنصّ القرآن الكريم للإنسانيّة جمعاء. إنّ الكون لا يستغنى عن الشّمس ضياءً ودفئاً وطاقة. وإنّ الإنسانيّة لا تستغنى عن المصطفى ﷺ هدىً ونوراً وأسوةً حسنة. وكما اتّسمت الشّمس بأنّها المولّد الأقوى للطّاقة، والمصدر الأوّل للدّفء، والمنبع الأشمل للضّوء، اتّسم المصطفى ﷺ بأنّه هو بفضل الله تعالى للإنسانيّة بمثابة الشّمس

---

(١) الآية ٦١.

(٢) الآية ١٣.

مصدر الطّاقة للأكوان، والعافية للأبدان.

وهكذا أفادت لفظة : ﴿سراجاً﴾ في حقّه عليه الصّلاة والسّلام قوّة النّبع وشمول النّفع.

ولمّا كان ضوء الشّمس يرتبط به أحياناً شيءٌ من الأذى كضربة الشّمس مثلاً، وكان نور القمر لا يرتبط به مثل ذلك الأذى، فقد جاءت لفظة : ﴿منيرا﴾ المشيرة إلى نور القمر في القول : ﴿وسراجاً منيراً﴾ منبّهةً إلى الخير المطلق الّذى يصل إلى الإنسانيّة جمعاء من نور هداية المصطفى ﷺ السّراج المنير. إنّ شمول خير المصطفى ﷺ أومأ إليه اللّفظ : ﴿سراجاً﴾ وإنّ كون ذلك الخير خالصاً خالياً من أيّ شائبة أومأ إليه اللّفظ : ﴿منيرا﴾ والله تعالى أعلم.

قال عزّ من قائل : ﴿يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا. وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيرا. ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله. وكفى بالله وكيلا﴾.

(٤)
(أحكامٌ عامةٌ للمؤمنين،
وأحكام خاصة بالنّبيّ ﷺ)
الآيات (٤٩ ـ ٥٢)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

يا أيّها الّذين آمنوا : يا أيّها الّذين صدّقوا الله ورسوله(١).

إذا نكحتم المؤمنات : في الآية الكريمة إطلاق النّكاح على العقد وحده. وليس في القرآن آيةٌ أصرح في ذلك منها(٢) وقوله : ﴿المؤمنات﴾ خرج مخرج الغالب، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابيّة في ذلك بالاتفاق(٣).

ثمّ طلّقتموهنّ : استدلّ بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ثم طلقتموهنّ﴾ وبمهلة : «ثمّ» على أن الطّلاق لا يكون إلاّ بعد نكاح(٤).

من قبل أن تمسّوهنّ : من قبل أن تجامعوهن(٥).

فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها : يعنى منْ إحْصاء أقراء ولا أشهر تحصونها عليهنّ(٦) وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلَماء أنّ المرأة إذا طلّقت قبل الدّخول بها لا عدّة عليها فتذهب فتتزوّج في فورها من شاءت. ولا يستثنى من هذا إلاّ المتوفّى عنها زوجها فإنّها تعتدّ منه أربعة أشهر وعشرا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضا(٧)

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ١٤

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣١.

(٣) .تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣١.

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٨٥ واتظر تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣١.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٤.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٤.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٢.

وفي الآية دلالةٌ لإباحة طلاق المرأة قبل الدّخول بها[1].

فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً جميلا : المتعة ها هنا أعمّ من أن تكون نصف الصّداق المسمّى، أو المتعة الخاصّة إن لم يكن قد سمّى لها[2] قال تعالى[3] : ﴿لا جناح عليكم إن طلّقتم النّساء ما لمّ تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة. ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قَدَرُه متاعاً بالمعروف حقّاً على المحسنين. وإن طلقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضةً فنصف ما فرضتم إلاّ أن يعفون أو يعفو الّذى بيده عقدة النّكاح. وأن تعفوا أقرب للتّقوى. ولا تنسوا الفضل بينكم. إنّ الله بما تعملون بصير﴾ يقول : أعطوهنّ ما يستمتعن به من عَرَضٍ أو عين مال[4] روى البخاريّ في صحيحه[5] أنّ النّبيّ ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلمّا أُدْخِلَتْ عليه بسط يده إليها، فكأنّها كرهت ذلك. فأمر أبا أُسَيْد أن يجهّزها ويكسوها ثوبين رازقيّين[6].

قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما : إن كان سمّى لها صداقاً فليس لها إلاّ النّصف. وإن لم يكن سمّى لها صداقاً فأمتعها على قدر عسره

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣١

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٢

(٣) سورة البقرة ٢٣٦ و ٢٣٧.

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٤ والعَرَض اسمٌ لما لا دوام له من متاع وحطام الدّنيا.

(٥) ٧/ ٥٣ وانظر فتح البارى ٩/ ٣٥٦ حديث رقم ٥٢٥٦ و ٥٢٥٧.

(٦) رازقيّين براء ثمّ زاي ثمّ قاف بالتّثنية، صفة موصوف محذوف للعلم به. والرّازقيّة ثيابٌ من كتّان بيض طوال. وقيل : في داخل بياضها زرقة. والرّازقيّ الصّفيق. قال ابن التّين : متّعها بذلك إمّا وجوباً وإمّا تفضّلا. فتح البارى ٩/ ٣٥٩.

ويسره، وهو السّراح الجميل[1] وسرّحوهنّ : طلّقوهنّ[2] سراحاً جميلاً : سنّةً غير بدعة[3] وخلّوا سبيلهنّ من غير إضرار[4].

ومن العلماء من ذهب إلى أنّ الآية الكريمة من سورة الأحزاب منسوخةٌ بالآية الكريمة الّتي في البقرة، وهي قوله تعالى[5] : ﴿وإن طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضةً فنصف ما فرضتم﴾ أي فلم يذكر المتعة[6].

وقد ذهب القرطبيّ إلى أنّ الآية الكريمة السّادسة والثّلاثين بعد المائتين من سورة البقرة في المطلّقة غير المفروض لها ولا المدخول بها، وهي لا مهر لها، بل أمر الرّبّ تعالى بإمتاعها[7] وأضاف[8] : «وبيّن في سورة الأحزاب أنّ غير المدخول بها إذا طُلِّقَتْ فلا عدّة عليها» وبذلك تكون آية سورة الأحزاب تتحدّث عن المطلّقة غير المفروض لها ولا المدخول بها، وهي الّتي تحدثت عنها الآية الكريمة السّادسة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة. والله أعلم.

يا أيّها الّذين صدّقوا الله ورسوله إذا نكحتم المؤمنات وعقدتم عليهنّ ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تجامعوهن فما لكم عليهنّ من عدّةٍ تعتدّونها وتحصونها عليهنّ، فمتّعوهنّ وآتوهنّ ما يستمتعن به من عَرَضٍ أو عين مال، وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً، وطلّقوهنّ طلاق سنّةٍ غير بدعة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٢ وانظر تفسير الطّبري ٢٢/ ١٥.

(٢) تفسير القرطبي ٥٢٨٧

(٣) تفسير القرطبي ٥٢٨٧.

(٤) الجلالين.

(٥) سورة البقرة ٢٣٧.

(٦) تفسير القرطبي ٥٢٨٧.

(٧) تفسير القرطبي ٥ ـ ١٠٠.

(٨) تفسير القرطبي ٥ ـ ١٠٠.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

آتيت أجورهن : أعطيت مهورهنّ(١) وتزوّجتهنّ بصداقٍ مسمًّى(٢).

وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك : وأحللنا لك إماءك اللّواتى سبيتهنّ فملكتهنّ بالسّباء وصرن لك بفتح الله عليك من الفيء(٣) كصفيّة بنت حُيَيّ فإنّه اصطفاها من سبي خيبر ثمّ أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جُويرية بنت الحارث المصطلقيّة، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شمّاس وتزوّجها(٤) والغنيمة قد تُسمَّى فيئا، أي ممّا أفاء الله عليك من النّساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٣ وتفسير الطّبرى ٢٢/ ١٩ والجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٥

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٥

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٣.

(٥) تفسير القرطبى ٥٢٨٩.

اللّاتي هاجرن معك : بخلاف من لم يهاجرن[1] أي لا يحلّ لك منهنّ إلاّ من هاجر إلى المدينة[2] معك : المعيّة هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصّحبة فيها، فمن هاجر حلّ له، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن[3].

وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنّبيّ : وأحللنا له امرأة مؤمنةً إن وهبت نفسها للنّبيّ بغير صداق[4].

إن أراد النّبيّ أن يستنكحها : إن أراد أن ينكحها فحلالٌ له أن ينكحها إذا وهبت نفسها له بغير مهر[5].

خالصةً لك من دون المؤمنين : لا يحلّ لأحد من أمّتك أن يقرب امرأة وهبت نفسها له وإنّما ذلك لك يا محمّد خالصةً أُخلصت لك من دون سائر أمّتك[6] قال ابن عبّاس : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأةٌ وهبت نفسها[7] عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أغار على اللّاتي وهبن أنفسهنّ لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها؟ فلمّا أنزل الله تعالى : ﴿ترجي من تشاء منهنّ وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت : ما أرى ربّك إلاّ يسارع في هواك[8].

قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم : قال قتادة : كان ممّا فرض الله

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير القرطبي ٥٢٨٩.

(٣) تفسير القرطبي ٥٢٩٠.

(٤) تفسير الطّبري ١٦/٢٢.

(٥) تفسير الطّبري ١٦/٢٢

(٦) تفسير الطّبري ١٦/٢٢.

(٧) تفسير الطّبري ١٧/٢٢ وفتح الباري ٨/ ٥٢٦.

(٨) فتح الباري ٨/ ٥٢٤ أي ما أرى الله إلاّ موجداً لما تريد بلا تأخير، منزلاً لما تحبّ وتختار. فتح الباري ٨/ ٥٢٦.

عليهم أن لا تزوّج امرأةٌ إلاّ بوليٍّ وصداق عند شاهدي عدلٍ، ولا يحل لهم من النّساء إلاّ أربع(١).

وما ملكت أيمانهم : قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم لأنّه لا يحلّ لهم منهنّ أكثر من أربع وما ملكت أيمانهم فإنّ جميعهنّ إذا كنّ مؤمنات أو كتابيّات لهم حلالٌ بالسّباء والتّسرّي وغير ذلك من أسباب الملْك(٢).

لكيلا يكون عليك حرج : لكيلا يكون عليك إثمٌ وضيقٌ في نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف الّتي أبحت لك نكاحهنّ من المسمّيات في هذه الآية(٣).

وكان الله غفوراً : لك ولأهل الإيمان بك(٤).

رحيماً : بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنبٍ منهم سلف بعد توبتهم منه(٥).

تنادى الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتصفه بإحدى صفتيه العظيمتين : ﴿يا أيّها النّبيّ﴾ وتقرّر أنّ الحقّ عزّ وجلّ أحلّ له ﷺ الزّوجات اللّاتي أعطاهنّ عليه الصّلاة والسّلام مهورهنّ، وأحلّ له ما ملكت يمينه ممّا أفاء الله تعالى عليه من الإماء كصفيّة بنت حُيَيّ الخيبريّة وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة، وأحلّ له بنات عمّه وبنات عمّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللّاتي هاجرن إلى المدينة المنوّرة بخلاف من لم يهاجرن، وأحلّ له أيّ امرأة مؤمنة تهب نفسها له عليه الصّلاة والسّلام، فله عليه الصّلاة والسّلام وحده دون سواه من أفراد أمّته أن يتزوّجها إن شاء بغير صداق. ولم يكن عند رسول الله ﷺ امرأةٌ وهبت نفسها له عليه الصّلاة والسّلام. أمّا أفراد الأمّة المحمّديّة فإنّه يجب على كلّ من تزوّج أن يدفع المهر لزوجته وإن وهبت نفسها له.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/١٨.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/١٨.

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/١٨.

(٤) تفسير الطّبري ٢٢/١٨.

(٥) تفسير الطّبري ٢٢/١٨.

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الحقّ جلّ وعلا قد علم ما فرض عليهم في زوجاتهم، فلا تتزوّج المرأة إلاّ بوليٍّ وصداقٍ عند شاهدي عدل، ولا يحلّ لهم من النّساء إلاّ أربع. وكذلك علم الحقّ جلّ وعلا ما فرض على المؤمنين فيما ملكت أيمانهم فإنّ جميعهنّ إذا كنّ مؤمنات أو كتابيّات لهم حلال بكلّ أسباب المِلْك بالسِّباء والتّسرّي والشّراء وما إلى ذلك. والمعروف أنّ الإسلام شرّع للعتق ولم يشرّع للرّقّ. والإسلام وَحْدَه هو الّذي رفع الرّقيق من مستوى الأشياء إلى مستوى الإنسان. وكان الرّقّ آنذاك قانوناً عالميّاً. وحينما طُبِّقَتْ تعاليم الإسلام بشأن الرّقّ لم يبق في ديار الإسلام مسترقٌّ واحد.

لقد بيّن الحقّ جلّ وعلا ما فرض على الأمّة المحمّديّة بشأن الزّوجات وملك اليمين لكيلا يكون على النّبيّ ﷺ ضيقٌ وإثمٌ في نكاح من نكح عليه الصّلاة والسّلام من النّساء المسمّيات في الآية الكريمة.

وكان الله تعالى دائماً وأبداً غفوراً لمن استغفر الله تعالى من ذنبه، رحيماً أن يعذّب من تاب توبة نصوحاً وأناب وعمل صالحاً.

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾

ترجي من تشاء منهنّ : أي تؤخّرهنّ بغير قَسْم. وهذا قول الجمهور(١) وتؤخّر من تشاء من أزواجك عن نَوْبتها(٢) .

وتؤوي إليك من تشاء : وتضمّ إليك من تشاء منهنّ(٣) فتأتيها(٤) .

ومن ابتغيت ممّن عزلت : ابتغيت : طلبت. والابتغاء : الطّلب. وعزلت : أزلت. والعزلة : الإزالة. أي إن أردت أن تؤوي إليك امرأةً ممّن عزلتهنّ من القسمة وتضمّها إليك فلا بأس عليك في ذلك. وكذلك حكم الإرجاء. فدلّ أحد الطّرفين على الثّاني(٥) .

فلا جناح عليك : أي لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهنّ، فتقدّم من شئت، وتؤخّر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت(٦) وفي الآية الكريمة التّوسعة على النبي ﷺ في ترك القَسْم. فكان لا يجب عليه القَسْم بين زوجاته(١) لكنّه عليه الصّلاة والسّلام كان يَقْسِم مِنْ قبل نفسه دون أن فرض ذلك عليه تطييباً لنفوسهنّ(٢) عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان يستأذن

---

(١) فتح الباري ٨/٥٢٦ وتفسير الطّبري ٢٢/١٨ وتفسير ابن كثير ٦/٤٣٧ وتفسير القرطبي ٢٥٩٦ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/١٨ وتفسير القرطبي ٥٢٩٦ .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير القرطبي ٥٢٩٧ .

(٦) تفسير ابن كثير ٦/٤٣٧ .

في يوم المرأة منّا بعد أن أُنزِلت هذه الآية : ﴿تُرْجي من تشاء منهنّ وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك﴾ فقلت لها[٣] : ما كنت تقولين؟ قالت كنت أقول له: إن كان ذاك إليّ فإنّي لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا[٤] قوله : «يستأذن المرأة في اليوم» أي الّذى يكون فيه نوبتها إذا أراد أن يتوجّه إلى الأخرى[٥] وظاهرها ما حكته عائشة من استئذانه أنه لم يُرْج أحداً منهنّ، بمعنى أنّه لم يعتزل. وهو قول الزّهريّ : ما أعلم أنّه أرجأ أحداً من نسائه. أخرجه ابن أبي حاتم[٦] .

ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ ويرضَيْن بما آتيتهنّ كلّهنّ : أي إذا علمن أنّ الله قد وضع عنك الحَرَج في القَسْم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أيّ ذلك فعلت، ثمّ مع هذا أنت تقسم لهنّ اختياراً منك، لا أنّه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنّتك عليهنّ في قسمك لهنّ وتسويتك بينهنّ وإنصافك لهنّ وعدلك فيهنّ[٧] .

والله يعلم ما في قلوبكم : أي من الميل إلى بعضهنّ دون بعض، ممّا لا يمكن دفعه. روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثمّ يقول : اللّهمّ هذا فعلى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك. ورواه أهل السّنن الأربعة من حديث حمّاد بن سلمة. وزاد أبو داود بعد قوله : فلا

---

(١) تفسير القرطبى ٥٢٩٦.

(٢) تفسير القرطبى ٥٢٩٧.

(٣) مُعاذة راوية الحديث.

(٤) فتح البارى ٨/ ٥٢٥ حديث رقم ٤٧٨٩.

(٥) فتح البارى ٨/ ٥٢٦.

(٦) فتح البارى ٨/ ٥٢٦ وانظر تفسير القرطبى ٥٢٩٧.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٧.

تلمني فيما تملك ولا أملك، يعنى القلب. وإسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات[1].

وكان الله عليماً : أي بضمائر السّرائر[2].

حليما : أي يحلم ويغفر[3].

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتذكر شيئاً ممّا خصّه الله تعالى به وحده دون غيره من أفراد الأمّة المحمّديّة مِنْ إسقاط واجب القَسْم للزّوجات في حقّه عليه الصّلاة والسّلام. تقول الآية الكريمة للنّبيّ ﷺ : تؤخّر يا محمّد من تشاء من زوجاتك فلا تجامعها، وتضمّ إليك من تشاء منهنّ فتجامعها، ومن طلبت من زوجاتك ممّن عزلت من القسمة فلا جناح عليك ولا حرج في أيّ شيءٍ متعلّق بالقَسْم بين الزّوجات فعلت.

ذلك التّخيير لك في القَسْم بين الزّوجات وإسقاطه في حقّك يا محمّد وعلم الزّوجات أنّ الله تعالى قد وضع عنك الحرج في القسم أدنى أن تقرّ أعينهنّ وأقرب أن تملأ البهجة قلوبهنّ والانشراح صدورهنّ حينما يعلمن أنّك عدلت بينهنّ بباعث الخلق العظيم الّذى خصّك الله تعالى به، وأنفى للحُزْن عنهنّ، وأحرى بهنّ أن يرضين بما أعطيتهنّ كلّهنّ من عَدْل في القَسْم.

والله تعالى يعلم ما في قلوبكم أيّها الأزواج من ميل لا سلطة لكم عليه إلى إحدى الزّوجات أو بعضهنّ فذلك معفوٌّ عنه بفضل الله تعالى. وعليكم أيّها الأزواج العدل بين الزّوجات فيما لكم عليه سلطة من قَسْمٍ ونفقةٍ وما إلى ذلك وإلاّ كان العذاب بسبب الظّلم أليما.

وكان الله تعالى عليماً بما تُخْفى السّرائر وتُجِنّ الضّمائر وبما تنوون وتقولون وتفعلون، حليماً لا يعاجل بالعقوبة فعليكم أن تستفيدوا من الإمهال فتتوبوا وألاّ تحسبوه إهمالاً فتستمرّوا في ظلمكم وتتمادوا في غيّكم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٨ وانظر هنالك تخريج الحديث.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٨.

في البخاري عن عمرو بن العاص أنّ النّبيّ ﷺ بعثه على جيش ذات السّلاسل، فأتيته فقلت : أيّ النّاس أحبّ إليك؟ فقال : عائشة. فقلت : من الرّجال. قال : أبوها. قلت : ثمّ من؟ قال عمر بن الخطّاب. (١) وكان في مرضه الّذى توفّي فيه يطاف به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهنّ أن يقيم في بيت عائشة. قالت عائشة : أوّل ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة. فاستأذن أزواجه أن يمرّض في بيتها، يعنى بيت عائشة، فأذنّ له. الحديث. خرّجه الصّحيح. وفي الصّحيح أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنْ كان رسول الله ﷺ ليتفقّد يقول : أين أنا اليوم أين أنا غداً، استبطاءً ليوم عائشة رضي الله عنها. قالت : فلمّا كان يومى قبضه الله تعالى بين سَحْرى ونحرى(٢) ﷺ(٣) .

لَا يَحِلُّ لَكَ
ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ
حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢

كان النّبيّ ﷺ بأمر من الله تعالى قد خيّر نساءه اللّاتى سألنه ما ليس عنده من النّفقة بين أن يُرِدْنَ الله تعالى ورسوله ﷺ والدّار الآخرة وبين أن يردن الحياة الدّنيا وزينتها فيمتّعهنّ ويسرّحهنّ سراحاً جميلاً فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدّار الآخرة رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين. وفي هذه الآية الكريمة مكافأةٌ من الله تعالى لأمّهات المؤمنين على حُسْن اختيارهنّ فقصر عزّ وجلّ المصطفى ﷺ عليهنّ.

---

(١) تفسير القرطبي ٥٣٠٠.

(٢) السَّحْر : الرّئة. والنّحر الصّدر.

(٣) تفسير القرطبي ٥٢٩٨.

إنّ الآية الكريمة تقول للمصطفى ﷺ : لا يحلّ لك يا محمّد النّساء من بعد هؤلاء التّسع اللّاتي اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدّار الآخرة، وليس لك أن تستبدل بهنّ زوجات أخريات بأن تطلّقهنّ وتتزوّج أخريات، ولو أعجبك يا محمّد حُسْن من تريد أن تتزوّج من النّساء. ويُسْتَثنَى من ذلك ما ملكت يمينك من الإماء، فمن حقّك أن تتسرّى بمن شئت منهنّ. وقد ملك ﷺ بعدهنّ مارية وولدت له إبراهيم ومات في حياته[1] وكان الله تعالى على كلّ شيءٍ رقيباً وحفيظا. روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتّى أحلّ الله له النّساء[2] ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوّج لتكون المنّة للرّسول ﷺ عليهن[3].

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٨.

(٥)

(الله تعالى وملائكته يصلّون على النّبيّ
فصلّوا عليه أيّها المؤمنون وسلّموا،
ولا تؤذوا أيّها النّاس المؤمنين والمؤمنات)
الآيات (٥٣ ـ ٥٨)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

سبب النزول.

هـذه آيـة الحجـاب، وهي ممّا وافق تنزيلها قـول عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١).

عن أنس بن مالك رضى الله عـنه قال : قال عمـر رضي الله عنه : قلت يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمـرت أمّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب(١) وثبت في الصّحيحين عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه قال : وافـقت ربّى في ثلاث فـقلت : يا رسـول الله، لو اتّخذت من مـقـام إبراهيم مصلًّى؟ فأنزل الله : ﴿واتّخذوا من مـقام إبراهيم مصلًّى﴾ وقلت : يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليـهنّ البرّ والفاجـر فلو حجبـتهنّ؟ فأنزل الله آية الحـجاب(٢). وقلت لأزواج النّبيّ ﷺ لمّا تمالأن عليه في الغَيْرَة : ﴿عسى ربّه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ﴾ فنزلت كذلك(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٠.

(٢) فتح البارى ٨/ ٥٢٧ حديث رقم ٤٧٩٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٠ والجزئيّة رقم ٥ من سورة التّحريم.

وعن أنس رضي الله عنه قال : بُني على النّبيّ ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم. فأُرْسِلْتُ على الطّعام داعياً، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون ثمّ يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون. فدعوت حتّى ما أجد أحداً أدعو، فقلت : يا نبيّ الله ما أجد أحداً أدعوه، فقال : فارفعوا طعامكم. وبقي ثلاثة رهط يتحدّثون في البيت. فخرج النّبيّ ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال : السّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت : وعليك السّلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك. فَتَقَرَّى(١) حُجَر نسائه كلّهنّ يقول لهنّ كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثمّ رجع النّبيّ ﷺ فإذا ثلاثةٌ من رهطٍ في البيت يتحدّثون. وكان النّبيّ ﷺ شديد الحياء. فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة. فما أدرى آخبرته أو أُخْبِرَ أنّ القوم خرجوا، فرجع حتّى إذا وضع رجله في أُسْكُفَّة(٢) الباب داخلةً وأخرى خارجةً أرخى السّتر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب(٣) وجاء في الحديث الّذى رواه مسلم والتّرمذى والنّسائى(٤) ما يفيد أنّ آية الحجاب نزلت معها الآية الكريمة التّالية الرّابعة والخمسون(٥) وجاء في ذلك الحديث الّذى رواه أنس بن مالك رضي الله عنه : «قال أنس : فقرأهنّ عليّ قبل النّاس، فأنا أحدث النّاس بهنّ عهدا»(٦) كما جاء فيه عن زينب أمّ المؤمنين رضي الله عنها : «وزوج رسول الله ﷺ الّتى دَخَلَ بها معهم، مولّيةً وجهها إلى الحائط»(٧).

إلى طعامٍ : تطعمونه(٨).

---

(١) فتقرّى بفتح القاف وتشديد الرّاء بصيغة الفعل الماضى. أي تتبّع الحجرات واحدة واحدة. فتح البارى ٨/ ٥٣٠.

(٢) الأُسْكُفّة : خشبة الباب الّتى يوطأ عليها.

(٣) فتح البارى ٨/ ٥٢٧ حديث رقم ٤٧٩٣.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٢ و ٤٤٣.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٢.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٢.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٢.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٥.

غير ناظرين إناه : غير منتظرين إدراكه وبلوغه. وهو مصدرٌ من قولهم : قد أَنَى هذا الشّيء يأنِى إنىً وأنياً وإناء[1] وغير متحيّنين نضجه[2] ونصب غير على الحال من الضّمير في : «لكم»[3].

ولكن إذا دعيتم فادخلوا : ولكن إذا دعاكم رسول الله ﷺ فادخلوا البيت الّذى أذن لكم بدخوله[4].

فإذا طعمتم فانتشروا : فإذا أكلتم الطّعام الّذى دعيتم لأكله فتفرّقوا واخرجوا من منزله[5].

ولا مستأنسين لحديث : في موضع خفض عطفاً به على ناظرين كما يقال في الكلام : أنت غير ساكتٍ ولا ناطق. والمعنى : ولا متحدّثين بعد فراغكم من أكل الطّعام إيناساً من بعضكم لبعضٍ به[6].

إنّ ذلكم كان يؤذى النّبيّ فيستحيى منكم : إنّ دخولكم بيوت النّبيّ من غير أن يؤذن لكم وجلوسكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراغكم من أكل الطّعام الّذى دعيتم له كان يؤذى النّبيّ فيستحيى منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطّعام أو يمنعكم من الدّخول إذا دخلتم بغير إذن مع كراهيته لذلك منكم[7].

والله لا يستحيى من الحقّ : أن يتبيّن لكم وإن استحيا نبيّكم فلم يبيّن لكم

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٥ وانظر لسان العرب : «أني».

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٥.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٥ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٧٦.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٦.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٦.

(٦) انظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٦.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٨.

كراهية ذلك حياءً منكم[1].

وإذا سألتموهنّ متاعاً : وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين اللّواتي لسن بأزواج متاعا[2] والمتاع كلّ ما يُنْتَفَعُ به على وجهٍ مّا[3].

فاسألوهنّ من وراء حجاب : فاسألوهنّ من وراء سترٍ بينكم وبينهنّ ولا تدخلوا عليهنّ بيوتهنّ[4].

ذلكم إطهر لقلوبكم وقلوبهنّ : سؤالكم إيّاهنّ المتاع إذا سألتموهنّ ذلك من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ من عوارض العين فيها الّتى تعرض في صدور الرّجال من أمر النّساء، وفي صدور النّساء من أمر الرّجال، وأحرى من أن لا يكون للشّيطان عليكم وعليهنّ سبيل[5].

وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله : وما ينبغى لكم أن تؤذوا رسول الله وما يصلح ذلك لكم[6].

ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً : وما ينبغى لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً لأنّهنّ أمّهاتكم ولا يحلّ للرّجل أن يتزوّج أمّه. وذكر أنّ ذلك نزل في رجلٍ كان يدخل قبل الحجاب قال : لئن مات محمّدٌ لأتزوّجنّ امرأةً من نسائه سمّاها. فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك : ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا﴾[7].

إنّ ذلكم كان عند الله عظيما : إنّ أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده عند الله عظيمٌ من الإثم[8].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٨.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٨.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «متع» ٢/ ٥٩٤.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٨.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٨.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٩.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢٩.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٠.

تنادى الآية الكريمة المؤمنين الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولا، وبالقرآن الكريم إماما، وتنهاهم عن أن يدخلوا بيوت النّبيّ ﷺ إلاّ أنّ يأذن لهم النّبيّ ﷺ بالدّخول ويدعوهم إلى تناول طعام. وحينما يدعوهم النّبيّ ﷺ يأتون في الوقت المناسب لا أن يأتوا مبكّرين منتظرين نضج الطّعام، متحيّنين بلوغه وإدراكه. وإذا تناولوا الطّعام عليهم ألاّ يجلسوا مستأنسين لحديث بعضهم لبعض، غافلين عن المشقّة الّتى سبّبها جلوسهم بعد الطّعام لأهل البيت. وتقرّر الآية الكريمة أنّ دخول المؤمنين بيوت النّبيّ ﷺ دون دعوة، ومجيئهم بدعوة قبل وقت نضج الطّعام، واستئناس بعضهم بحديث بعض بعد تناول الطّعام، تقرّرأنّ كلّ هذه الأمور المرغوب عنها كان يتأذّى منها النّبيّ ﷺ ويستحيى أن ينبّه المؤمنين إلى هذا السّلوك المرغوب عنه. والله سبحانه وتعالى لا يستحيى من الحقّ أن يُعلَن، والسّلوك المرغوب عنه أن ينبَّه عليه. وقد عرفنا الأذى الّذى نال النّبيّ ﷺ بحديث الثّلاثة رهط بعد تناول الطّعام، وكانت زينب زوج النّبيّ ﷺ مولّيةً وجهها نحو الحائط.

وإذا سألتم أيّها المؤمنون أزواج النّبيّ ﷺ متاعاً تنتفعون به فاسألوهنّ من وراء حجاب ولا تدخلوا عليهنّ البيوت واطلبوا منهنّ من خلف سترٍ ذلك المتاع. إنّ أخذ المتاع من وراء ستر أطهر لقلوبكم تجاه النّساء، وأطهر لقلوب النّساء تجاه الرّجال. ومعروفٌ أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، فالحكم شاملٌ جميع النّساء.

وما كان ينبغى لكم ولا يصحّ لكم أن تؤذوا رسول الله ﷺ في أيّ صورةمن الصّور، ولا أن تنكحوا أزواجه عليه الصّلاة والسّلام من بعد وفاته أبداً لأنّهنّ أمّهات المؤمنين، ولا يحلّ للرّجل أن يتزوّج أمّه. إنّ إيذاءكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده، ذنبٌ عظيمٌ عند الله تعالى وإثمٌ كبير.

إن

تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

إنّ تبدو أيّها المؤمنون شيئاً بألسنتكم ممّا تكنّه قلوبكم وتخفيه ضمائركم من خيرٍ أو شرّ، أو تخفوه في نفوسكم وصدوركم، فإنّ الله سبحانه وتعالى كان بكلّ شيءٍ عليماً، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وإنّ عليكم أيّها المؤمنون أن تنتهوا عن مجرّد التّفكير في الزّواج بزوجات النّبيّ ﷺ بعد وفاته.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

لا جناح عليهنّ : لا حرج على أزواج رسول الله ﷺ في آبائهنّ ولا إثم[1] في ترك الاحتجاب[2].

ولا نسائهنّ : نساء المؤمنات الحرائر[3].

ولا ما ملكت أيمانهنّ : من الرّجال والنّساء[4].

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣٠.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣٠.

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣١.

(٤) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣١.

واتّقين الله : وخصّ الله أيّها النّساء أن تتعدّين ما حدّ الله لكنّ فتبدين من زينتكنّ ما ليس لكنّ أن تبدينه أو تتركن الحجاب الّذى أمركنّ الله بلزومه إلاّ فيما أباح لكنّ تركه، والْزَمْنَ طاعته(١).

الآية الكريمة في الحجاب، وتتعلّق الزّينة بالحجاب. وتذكّرنا بالآية الكريمة الحادية والثّلاثين من سورة النّور في الزّينة. وفي آية سورة النّور زيادةٌ على آية سورة الأحزاب(٢) قال عزّ من قائل(٣) : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بنى إخوانهنّ أو بنى أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التّابعين غير أولى الإربة من الرّجال أو الطّفل الّذين لم يظهروا على عورات النّساء ولا يضربن بأرجلهنّ ليُعلَمَ ما يُخْفِين من زينتهنّ. وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تُفلحون﴾.

تقرّر آية الأحزاب الكريمة أنّه لا حرج ولا إثم على أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ، ويلحق بهنّ نساء المؤمنين، أن يتركن الحجاب أمام الفئات الّتى نصّت عليها الآية الكريمة. وقد عرفنا أنّ في آية سورة النّور زيادة على هذه الفئات. إنّهنّ ليس عليهنّ إثمٌ أن يتركن الحجاب ويبدين الزّينة المسموح بها أمام آبائهنّ وأبنائهنّ وإخوانهنّ وأبناء إخوانهنّ وأبناء أخواتهنّ والنّساء المؤمنات الحرائر. ويلحق بهنّ الشّريفات وذوات العفّة والحياء من غير المسلمات(٤) ولا جناح عليهنّ أن يفعلن ذلك أمام ما ملكت أيمانهنّ من الرّجال والنّساء. وعلى المؤمنات جميعاً أن يتقين الله تعالى ويراقبنه في السّرّ والعلن. إنّ الله تعالى كان على كلّ شيءٍ شهيداً ومطّلعاً فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وسيثيب على الحسنة وسيعاقب على السّيّئة.

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٦.

(٣) سورة النّور ٣١.

(٤) الحجاب لأبى الأعلى المودودى ٢٨٧.

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبيّ : قال أبو العالية : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدّعاء[١] وقال ابن عبّاس : يصلّون يبرّكون[٢] وعن ابن عبّاس كذلك : يباركون على النّبيّ[٣] وعلّق ابن حجر في فتح الباري على قول ابن عبّاس : يصلّون يبرّكون بالقول[٤] : «وصله الطّبري من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله : ﴿يصلّون على النّبيّ﴾ قال : يبرّكون على النّبيّ، أي يدعون له بالبركة، فيوافق قول أبي العالية، لكنّه أخصّ منه».

يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما : عن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه. قيل : يا رسول الله : أمّا السّلام عليك فقد عرفناه فكيف الصّلاةُ عليك؟ قال : قولوا اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على آل ابراهيم إنّك حميدٌ مجيد. اللّهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد[٥] يا أيّها الّذين آمنوا ادعوا لنبيّ الله محمّد ﷺ وسلّموا عليه تسليما. يقول : وحيّوه تحيّة الإسلام[٦] والمراد بالسّلام ما علّمهم إيّاه في التّشهّد من قولهم : السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته. والسّائل عن ذلك هو كعب بن عُجْرة نفسه[٧].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٥٣٢.

(٢) فتح الباري ٨/ ٥٣٢.

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣١.

(٤) فتح الباري ٨/ ٥٣٣.

(٥) فتح الباري ٨/ ٥٣٢.

(٦) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣١.

(٧) فتح الباري ٨/ ٥٣٣.

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله تعالى يصلّى على حبيبه ﷺ في الملأ الأعلى، ويثنى عليه عند الملائكة، وأنّ الملائكة الأطهار يدعون للمصطفى ﷺ ويثنون عليه. وإذا كان الله تعالى وملائكة عرشه يصلّون على محمّد ﷺ فواجب المؤمنين أن يصلّوا عليه في الصّلاة أثناء التّشهّد، وفي غير التّشهّد. في التّشهّد يقولون : اللّهمّ صلّ على محمّدٍ وعلى آل محمّد، كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد. اللّهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد. ووراء ذلك تكون الصّلاة على النّبيّ ﷺ بالقول : اللّهمّ صلّ على محمّد(١) والمؤمنون مأمورون بأن يقرنوا بالصّلاة على النّبيّ السّلامَ عليه، في الصّلاة أثناء التّشهّد وفي غير التّشهّد. في التّشهّد يقولون : السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته. ووراء ذلك يقولون : اللّهم صلّ على محمّد وسلّم(٢).

والقول : ﴿تسليما﴾ مفعولٌ مطلق يفيد التّوكيد(٣).

والمقصود من هذه الآية أنّ الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيّه عنده في الملأ الأعلى، بأنّه يثنى عليه عند الملائكة المقرّبين، وأنّ الملائكة تصلّى عليه. ثمّ أمر تعالى أهل العالم السّفلى بالصّلاة والتّسليم عليه، ليجتمع الثّناء عليه من أهل العالمين العلويّ والسّفليّ جميعاً(٤).

قال النّوويّ : إذا صلّى على النّبيّ ﷺ فليجمع بين الصّلاة والتّسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : صلّى الله عليه فقط. ولا : عليه السّلام، فقط. وهذا الّذى قاله منتزعٌ من هذه الآية الكريمة، وهي قوله : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا

---

(١) الجلالين.

(٢) الجلالين.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٧٩.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٧.

صلّوا عليه وسلّموا تسليما﴾ فالأولى أن يقال : صلّى الله عليه وسلّم تسليما[1].

وبشأن القول : ﴿صلّوا عليه وسلّموا تسليما﴾ ترقى ظاهرة تلاؤم الأصوات إلى مستوى موافقة شطرٍ من أحد بحور الشّعر وهو بحر الكامل. ووزن الشّطر بالتّفاعيل

متفاعلن متفاعلن متفاعلن[2].

وجاءت الجزئيّة الكريمة وفق هذه الصّورة

مستفعلن متفاعلن متفاعل

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

بغير ما اكتسبوا : فرّق العلماء بين كسب الّتي ترتبط بكلٍّ من الحسنات والسّيّئات ولكنّ ارتباطها بالحسنات أكثر، وبين اكتسب الّتي ترتبط بالسّيّئات أكثر. وممّا جاء في هذا المعنى قول ابن عطيّة[3] : «والّذي يظهر لي في هذا أنّ الحسنات هي ما كُسِبَ دون تكلّف، إذ كاسبها على جادّة أمر الله ورسم شرعه.. والسّيّئات تكتسب ببناء المبالغة، إذ كاسبها يتكلّف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٦٩.

(٢) انظر ـ مثلا ـ البحر الكامل في كتاب: أهدى سبيل إلى علمي الخليل العروض والقافية للأستاذ محمود مصطفى. ٥٢-٥٩ مكتبة ومطبعة محمّد على صبيح وأولاده الطّبعة التّاسعة عشرة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٣) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢/ ٥٤٤.